

الفصل الأول

ثنائية الأنا والآخر فى الرواية والسينما

تمتاز الروايات العربية، والتي تم تحويل عدد كبير منها إلى أفلام سينمائية، بتجسيد ثنائية الأنا والآخر عبر مجموعة من الرؤى والأنماط والصور المتقابلة سواء أكانت سلبية أم إيجابية تترجم لنا ثنائية الشرق والغرب، وثنائية الذكورة والأنوثة، وثنائية التقدم والتخلف، وثنائية العلم والجهل، وثنائية المادة والروح.. و يقسم الناقد السورى الدكتور جميل حمداوى أنماط الرؤى والصور فى روايات الأنا والآخر على النحو التالى:

١- الرؤية الانبهارية:

نعنى بالرؤية الانبهارية تلك النظرة الأولى للأنا وهى تتأمل منجزات الآخر المائل أو المخالف، تلك النظرة الحائرة القائمة على الاندهاش والتعجب والاستغراب والانبهار بحضارة الغرب، والافتتان بتقدمه وازدهاره فى شتى العلوم والفنون والتقنيات والمعارف والآداب. وغالبا ما تكون تلك النظرة فى البداية فطرية ساذجة أو نظرة واعية نسبيا بالفوارق الموجودة بين الشرق والغرب أو بين المكان الأصل ومكان الغواية والجذب والافتتان، وذلك بسبب صدمة الحداثة أو صدمة الاستعمار، والتي تفرز بشكل جلى التناقضات الهائلة والتباين الشاسع والهوة الفاصلة بين عقلية متخلفة وعقلية متقدمة.

ومن النصوص الروائية العربية الأولى التي صورت جدلية الأنا والآخر من خلال رؤية انبهارية استعجابية واستغرابية، نستحضر رواية رفاة الطهطاوى: «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، والتي هي بمثابة رحلة يقوم بها طالب مصرى إلى باريس فى أواخر القرن التاسع عشر، فيصف جغرافيتها، ثم ينبهر بحضارتها وعلومها وفنونها وأنظمتها السياسية والدستورية والإدارية، ثم يعجب بسكانها وأخلاقهم ومنازلهم وصحتهم وتأنقهم وعاداتهم. ويعنى هذا أن العمل الأدبى والإبداعى الذى كتبه رفاة الطهطاوى عبارة عن رحلة روائية تعليمية وتثقيفية تطرح رؤية انبهارية قائمة على تمجيد العقلية الفرنسية، مع الإشارة فى نفس الوقت بالإحالة والتعريض والتلويح إلى تخلف العقلية الشرقية، وانحطاط الواقع العربى الإسلامى على جميع الأصعدة والمستويات.

وعلى الرغم من هذا، «فمن التجنى على كتاب رفاة الطهطاوى أن نقيسه بالرواية، وقيمة الكتاب من الناحية الفكرية أكبر بكثير من الناحية الأدبية، لأنه يكشف لنا ولأول مرة عن احتكاك عقلية أزهرية متفتحة بعلوم الأوربيين وبعض مظاهر حياتهم الاجتماعية، لمؤلف وجد فى نفسه الجرأة على الاعتراف بتقدم الغربيين فى العلوم برغم كونهم لا ينتمون إلى الإسلام، كما ترجم كثيرا من المواد فى دستورهم وأعجب بنظام الحكم عندهم. برغم ماكان يقدمه من تبريرات، ثم وجد الجرأة على نشر كتاب فى مجتمع يحكم حكما استبداديا ولا يجد فضيلة إلا وهى عند المسلمين وحدهم، مجتمع النصف الأول من القرن التاسع عشر».

ويمكن الحديث عن مؤلف تاريخي سبق إلى عقد مقارنة بين العقلية الشرقية والغربية كما نجد ذلك عند المؤرخ المصرى عبد الرحمن بن حسن الجبرتى فى كتابه «فى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار»، والمعروف بتاريخ الجبرتى، وذلك أثناء حديثه عن الحملة الفرنسية على مصر. ونجد هذه الرؤية الانبهارية بالحضارة الغربية وعلومها ومعارفها أيضا فى رواية على مبارك «علم الدين»، وتأخذ طابع رحلة سياحية إلى فرنسا للاعتراف من العلوم والمعارف والآداب الموجودة لدى الفرنسيين.

وإذا كان هؤلاء الروائيون الرحالة الأوائل المنبهرون كثيرا بحضارة الغرب عشقا وفتنة ودهشة، يوفقون غالبا فى نصوصهم السردية بين الحضارة الغربية والتراث العربى المشرقى، فيدافعون إلى حد ما عن القيم الروحية الإسلامية، فإن الكاتب فرح أنطون فى روايته «الدين والعلم والمال أو المدن الثلاث»، قد انبهر بالحضارة الغربية أيما انبهار، مرجحا كفتها على كل ما لدى العرب من إرث ثقافى وحضارى وقيمى.

٢- الرؤية الحضارية:

بعد الرؤية الانبهارية بتفوق الغرب، والاعتراف بتقدمه علميا وفنيا وتقنيا فى المرحلة الأولى من فترات القرن التاسع عشر الميلادى، نجد رؤية أخرى ستتشكل روائيا وفنيا وإبداعيا فى العقود الأولى من القرن العشرين، وذلك مع جيل من الكتاب الذين سافروا إلى الخارج لطلب العلم كطه حسين، وتوفيق الحكيم، ويحيى حقى، ويوسف إدريس، وسهيل إدريس.. وآخرين بيد أنهم لم ينبهروا بالغرب إلى درجة السذاجة السطحية والاستغراب الخارق الفاتن، بل تنبهوا إلى أسباب

تقدم الغرب ماديا وتقنيا وعلميا وثقافيا وفنيا، ولكنهم تنبهوا أيضا إلى قيمة الشرق، وتميزه على مستوى القيم الدينية والروحانية، والدفاع عن أصالته وعاداته وتقاليده وحضارته وشرقيته.

والمقصود من كل هذا أن كثيرا من المثقفين العرب في بداية القرن العشرين قد انبهروا أيما انبهار بحضارة الغرب إعجابا وافتتانا وغواية، فانساقوا وراء نزواتهم الشعورية واللاشعورية.

وبالتالى، كانت رؤيتهم للغرب على أنه رمز للحرية والعلم والتقدم والإشباع الغريزى لكل المكبوتات الظاهرة والدفينة. ولكنهم سرعان ما استيقظوا من سباتهم، وذلك ليتعرفوا حقيقة الغرب المادى باعتباره فضاء حضاريا مخالفا عقديا وقيميا ودينيا وأخلاقيا واجتماعيا وثقافيا عن الفضاء الشرقى الروحانى. وأن لكل بيئة مقوماتها الخاصة، فالشرق شرق والغرب غرب. وهذا ما عبرت عنه الكثير من الروايات العربية بشكل واضح وجلى كرواية «الحى اللاتينى» لسهيل إدريس، و«موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح، و«عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم، و«الأيام» لطف حسين، و«قنديل أم هاشم» ليحيى حقى.

ومن ثم، تصور رواية «أديب» لطف حسين، ذات الطابع البيوجرافى، الصراع الحضارى بين الشرق والغرب، والتقابل بين عالم الكبت وعالم التحرر، ورصد التفاوت الملحوظ بين عالم التخلف وعالم التقدم، والمقارنة بين الانحطاط الحضارى والرقى المدنى. لذلك، كان ينظر الأديب إلى مصر وزوجته حميدة بنظرة تغاير نظرتة إلى فرنند وفرنسا. بيد أن الأديب سيضيع فى فرنسا، ويتيه فيها ضاللا وتيها وانحرافا،

فيفشل فى الحصول على الشهادة التى تؤهله علميا ومعرفيا، وذلك بسبب انبهاره بالقيم الأوربية الجديدة (الحرية - عشق المدن - تحرر المرأة - الإباحية). فلم يأخذ الأديب من الغرب سوى القشور وسفاسف الأمور، والانغماس فى ملذات الحياة ومطايبها ولذاتها إلى أن فقد الحياة وصلته بأسرته السعيدة فى مصر.

إذا، هناك جدلية وتفاوت فى هذه السيرة الروائية بين هذين الفضائيين المتقابلين، حتى إن الأديب لم يرتض العودة إلى بلده لما قامت الحرب على فرنسا، وكان يتمنى الدفاع عن هذا البلد فى وجه النازية، لأن هذا البلد يقترن فى ذاكرته بالحب والحرية والإشباع الشبقى، فى حين يقترن بلده بالكبت والحرمان وصعوبة المسئولية.

لكن طه حسين فى روايته «الأيام» سيستعيد طفولته بطريقة استرجاعية قائمة على التذويت والتذكر والتركيز على أهم المحطات الحياتية التى كانت لها تأثير كبير فى نفسية الكاتب. بيد أن أهم مرحلة فى الرواية هى مرحلة سفره إلى فرنسا لمتابعة دراساته الجامعية العليا قصد تحضير الدكتوراه، فينبره بباريس مدينة الجن والملائكة، فيصور معالمها الفنية والجمالية. ثم، يرصد لنا حضارة فرنسا فى ميادين العلوم والمعارف والآداب والفنون من خلال رؤية حضارية تقابل بين مدينة الغرب المتقدمة وتخلف العقلية الشرقية. وبالتالي، يرى طه حسين أن الغرب هو مفتاح التقدم الحضارى والازدهار العلمى والفنى ومستقبل الحضارة المصرية، وذلك مع مراعاة خصوصية عوائد الشرق وأعرافه وتقاليد وقيمه الدينية الأصيلة.

أما توفيق الحكيم فى روايته الرومانسية العاطفية العذرية «عصفور من الشرق»، فقد صور هذه الرؤية الحضارية المتفاوتة بين شرق متخلف وغرب متقدم، إلا أنه يعتبر الغرب فضاء للماديات والتفسيخ الأخلاقى والانحطاط القيمى. بينما الشرق على العكس من ذلك، فهو رمز للروحانيات الطاهرة والقيم الدينية الفضلى والمثل العليا الأصيلة، والتي يصعب جدا تغييرها بالمعايير الكمية والمبادئ المادية الاستعمالية. وترد هذه النظرة الحضارية التقابلية جلية إلى حد ما فى كتابات جبران خليل جبران كما فى كتابه الفلسفى القيم «النبي»، والذي اعتبر الشرق بمثابة حل روحانى للغرب المادى البرجماتى (المنفعى).

وهكذا، تعرض رواية «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم: «مفارقات تقوم على تقابل الشرق بمقوماته مع الغرب بمقوماته، فى قصة تتصل بحياة الكاتب فى فرنسا. فمحسن الشرق يستغرق فى التأمل، وتستهويه التماثيل والموسيقى، ويحب حبا مثاليا. ولكنه يصطدم بألوان الحياة الغربية الواقعية حين يتصل بأندرية فيتجه إلى الواقع وإلى مشاكل العمال، ثم بإيفان الروسى فيبسط صور الشرق والغرب، ومحاسن كل منهما وعيوبه، ويرسم لكل منهما مثلا أعلى، ثم يرى ما فى الحب من مادية حين يتعرف بصاحبته بعد تقديم هداياها، ويختلط بالفنانين فتتحول نفسه الشرقية بالتدرج، إذ يحبو نحو المثل العليا فى الفن وفى الدين وفى الموسيقى من ناحية، ويتصل بالمشاكل العملية من ناحية أخرى، فيناقش مسائل الفراغ والمطالعة، وبعد الأزمة النفسية الأولى يخلق خلقا جديدا، ويستمد قوته من مواطن القوة فى رسالة الشرق، ويبتعد عن مواطن الزلل فى كيان الغرب...».

ومن جهة أخرى، تصور رواية «الحى اللاتينى» لسهيل إدريس العلاقة بين الشرق والغرب عبر تشغيل جدلية الذكورة (الشرق) والأنوثة (الغرب)، حيث تصبح المرأة هنا المحك الأساسى لهذه العلاقة الثنائية، وتتحول إلى رمز إنسانى دال. فبطل الحى اللاتينى هو الأنا أو الشرق، بينما عشيقته جانين مونتيرو هي بمثابة رمز للآخر أو الغرب. لكن العلاقة بينهما تنتهى بالفراق والانفصال على الرغم من رباط الحب الصادق الذى كان يجمع بينهما، والسبب فى ذلك أن الشرق شرق والغرب غرب. ويعنى هذا أن بطل الحى اللاتينى لم يستطع الانسلاخ عن شرقه وجذوره وما نشأ عليه من أعراف وتقاليد. فقد استوعبت جانين جيدا هذا الاختلاف الحضارى على الرغم من أن عشيقها قرر الزواج بها، وذلك بعد أن عاتبه ضميره الحى حينما أنكر نسبة الجنين إليه، وأراد أن يقتاد بصديقه المناضل فؤاد، ويكون مسئولاً وملتزماً بدوره الوجودى. وهكذا، يبدو هذا الاختلاف بمثابة صراع بين القيم المادية والقيم الروحية، وصراع بين الدين والإلحاد، وصراع بين الأخلاق والإباحية، وصراع بين الرجولة الشرقية والأنوثة الغربية. وقد يعكس هذا الصراع التفاوت الحضارى بين غرب التقدم والعلم والتكنولوجيا وشرق التخلف والجهل والخرافات والأساطير، كما عكست ذلك بوضوح رواية «قنديل أم هاشم» ليحيى حقى ورواية «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم.

إذا، هناك فى الرواية صدام اجتماعى وأخلاقى وحضارى، وهذا ما تعبر عنه جانين مونتيرو فى مذكراتها إلى فتاها وعشيقها الأسمر الشرقى، بعد أن رفضت الزواج منه، وذلك بسبب القيود الاجتماعية

والفكرية والعقائدية التي تطرحها ثنائية الشرق والغرب: «أنا الآن على يقين من أن اجتماعنا أمس، في غرفتي المسكينة، فرض على فرضا أن أرد فكرة الاقتران بك. لقد اجتمعت أمس بإنسان لا أعرفه. بشاب أنكرته، وكأنتي ما لقيته من قبل قط. كان شعوري بعد أن تركتني يا حبيبي. لقد استعدت ما حدثتني به عن المستقبل، وعن آمالك، وعن حياة الصراع الذي أنت مدعو إلى أن تعيشها في بلادك، فوجدت أن دنياك التي تحلم بها أوسع وأعظم من أن يستطيع الثبات فيها شخص ضعيف مثلي. إنك الآن تبدأ النضال، أما أنا فقد فرغت منه، ومات حس النضال في نفسي. لقد عجزت أن أقاوم أطول مما قاومت، فسقطت ضعيفة مهیضة الجناح.. أما أنت فقد قرأت أمس في عينيك استعدادا طويلا، طويلا جدا للمقاومة والصراع. وقد كنت قرأت مثل ذلك في عيني صديقك العزيز فؤاد، ولكن يخيل إلى أن الجذوة التي كانت تطل من ناظريك هي أشد التهابا واشعاعا من جذوة فؤاد، تلك التي حدثتني عنها مرة في معرض الإعجاب. إنك إنسان جديد يعرف الذي يريده، ويسعى إليه بثقة وإيمان. لا يا حبيبي، لسنا على صعيد واحد. لقد وجدت أنت نفسك بينما أضعت أنا نفسي. فكيف تريدني أن أستطيع السير على جانبك، قدما واحدة، في الطريق الشاق الذي ستسلك؟ إنني لا أنتمي إلى جيلكم، جيل وجيل فؤاد وربيع وأحمد وصبحي وعدنان. لا، لن أذهب معك. إن بوسعي الآن أن أتمثل نفسي إذا رافقتك. ستجرجرني خلفك. سأعيق طموحك. سأكون أنا في السفح وتكون أنت في القمة. فامض قدما يا حبيبي، ولا تلتفت إلى ما وراءك.

أما أنا فأستمد دائما من حبي لك، هذا الذى تصهره الآلام، وقودا يشع على، فينسينى شقاء عيشى، وزادا أتبلغ به حتى أيامى الأخيرة. فدعنى هنا أتابع طريقي حتى النهاية، وعد أنت يا حبيبي العربى إلى شرقك البعيد الذى ينتظرک، ويحتاج إلى شبابک ونضالك».. جانين..

ونصادف أيضا جدلية الذکورة والأنوثة وثنائية الشرق والغرب والجهل والعلم جليلة أيما جلاء ووضوح فى رواية يحيى حقى «قنديل أم هاشم»، والتي تصور التقابل الحضارى المتفاوت بين العقلية الغربية والعقلية الشرقية من خلال التقابل بين شخصية إسماعيل الروحانية وشخصية مارى المادية.

ونجدها كذلك فى رواية «الغربة» للكاتب المغربى عبد الله العروى، والتي تصور خيبة إدريس فى علاقته بمارية التى تخلت عن المبادئ التى كان يؤمن بها إدريس كالنضال ضد الاستعمار، واحترام مكونات الأصالة المغربية، والتشبث بالقيم الدينية والأخلاقية. لكن مارى هاجرت مع إدريس إلى أوربا بمعية صديقتها لارة الخائبة هى بدورها. ويعنى هذا أن الرواية تنقل لنا شخصية إدريس فى صراعها مع الذات والموضوع على حد سواء. تتلذذ بالإخفاق والفشل العبثى باعتبارها شخصية إشكالية سلبية عاجزة عن تغيير الواقع المتردى فى شتى مجالاته. كما تصور الرواية مرارة اليأس والحيرة بين الماضى والحاضر، وبين القيم الغربية من ناحية والقيم العربية والتقاليد والأخلاق الموروثة من ناحية أخرى. زد على ذلك، تعكس الرواية الازدواجية الحضارية بما فيها ظاهرة الاستعمار، وجدلية الذات والآخر، وعلاقة الشرق بالغرب. وبالتالي،

تقدم الرواية وعيا شاملا بالقضايا الاجتماعية المغربية في علاقتها بالحضارة الاستعمارية، وتصور الرواية كذلك آمال المغاربة في الاستقلال السياسي، وآمال بعضهم في الغد المأمول.

وهذا التقابل الحضارى يترجمه عبد الله العروى مرة أخرى في روايته الذهنية «أوراق» كما فى فصلى «العاطفة» وفصل «وجدان»، حيث سيدخل إدريس فى علاقات غرامية وجدانية وعاطفية ورومانسية ستنتهى بالفشل، وذلك لتضخم الأنا والطغيان الذهنى لدى إدريس فى خطابه التواصلى مع المرأة الغربية.

كما نجد جدلية الذكورة (الفحولة) والأنوثة (المرأة) فى رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» عند الكاتب السودانى الطيب صالح، والتى ترصد لنا مصطفى سعيد مهاجرا إلى إنجلترا من أجل تحصيل العلم. بيد أن هذه الشخصية المحورية ستتخذ من الفحولة الجنسية والشبقية وسيلة للانتقام والثأر من مجموعة من الإنجليزيات، وذلك تعبيرا عن رغبته فى تصفية حساباته الشعورية واللاشعورية مع المستعمر، والذى كان قد فرض هيمنته لأمد طويل على بلد السودان باستغلال خيراته، واستعباد شعبه، وإذلال أهله.

وترد هذه الجدلية كذلك فى رواية «قدر يلهو» للكاتب السورى شكيب الجابرى الذى انتقل بطله هذه المرة إلى برلين حيث المعسكر الاشتراكى، فيقيم تقابلا حضاريا بين الغرب والشرق من خلال العلاقة العاطفية بين البطل وعشيقته إلزا.

ومن الروايات الأخرى التى تحمل فى مضانها رؤية حضارية، وذلك من خلال التقابل بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية رواية

«أصوات» لمليمان فياض، والتي جمد فيها الكاتب انبهار القرويين المصريين رجالا ونساء بحضارة الغرب، وذلك في صورة «سيمون» زوجة حامد البحيري، والتي كانت تبدو متفوقة حضاريا ومدنيا.

وتحضر هذه الصورة النمطية الحضارية كذلك في رواية «في الطفولة» لعبد المجيد بنجلون، والذي يقابل فيها بين بينثين مختلفتين حضاريا ودينيا واجتماعيا وتربويا: البيئة الإنجليزية المتقدمة والبيئة المغربية المتخلفة. أى إن الكاتب يستحضر في نصه الأطوبيوغرافي فضائين متقابلين: فضاء إنجلترا وفضاء المغرب، ويتعبير آخر يذكر فضاء مانشستر وفضاء فاس. وهنا نسجل جدلية الداخل والخارج، وجدلية الانفتاح والانغلاق، فضلا عن جدلية التقريب والتأصيل. كما يدل القضاء على الصراع الحضارى والثقافى والدينى. وتتقابل الأمكنة العامة والخاصة للإحالة على مجموعة من القيم والسمات المتقابلة كالتطور والتخلف، والعلم والجهل، والمادة والروح، والبداءة والحضارة..

ويمكن اعتبار «في الطفولة» لعبد بن جلون نصا روائيا، وذلك لكونه يجمع بين التوثيق والتخييل، ويتأرجح بين المتعة الفنية وسرد الحقائق التاريخية. كما أن النص يخضع لكل مقومات الحبكة السردية وخصائص الكتابة الروائية، فضلا عن توظيف خاصية التشويق والإمتاع الفنى، وتطويع السرد لخدمة المضمون والاعتراف الذاتى. ومن ثم يمكن القول: إن «في الطفولة» كتاب يجمع بين السيرة الذاتية والكتابة الروائية.

وثمة نصوص حضارية أخرى كرواية «نيويورك ٨٠» ليوسف إدريس، ورواية «فتاة من هيل» للكاتب السعودى محمد عبده يمانى، ورواية

«من دفتر العشق والغربة» لجمال الغيطاني، ورواية «العودة إلى المعبد» لنبيل نعم، ورواية «القاهرة... باريس ذهاب.. عودة» لمهير توفيق، بله عن روايات عديدة أخرى لا داعي لذكرها تناولت ثنائية الشرق والغرب، وذلك بشكل من الأشكال..

وبناء على ما سبق، تندرج هذه النصوص السردية كلها ضمن الرواية الحضارية، والتي تصور العلاقة الجدلية بين الشرق والغرب أو بين الشمال والجنوب. أى إن الرواية الحضارية هي التي تجسد العلاقة بين الأنا والآخر، وترصد اللقاء الحضارى بين الشرق والغرب تخيلا وإبداعا وتشخيصا، وذلك على مستوى العادات والتقاليد والأعراف والأديان والمعطيات الثقافية والمادية والعلمية والفنية والأدبية والتقنية. وهذه العلاقة التي حددتها هذه النصوص الروائية المذكورة غالبا ما كانت تخضع سيميائيا على مستوى الرغبة (رغبة الذات في موضوع ما) لقانون الاتصال (الحب والغواية والافتتان والانبهار والجنس).. والانفصال (الفراق والطلاق والعودة إلى البلد الأصلي، والتشبث بالقيم الشرقية، والتأقلم مع عوائد وتقاليد الشرق)..

٣- الرؤية السياسية والحقوقية:

نقصد بالرؤية السياسية والحقوقية تلك النظرة المبنية على تشخيص النظام السياسى لدولة ما، وتبيان طبيعة الحكم والدستور، ورصد علاقة الحاكم بالمحكوم سياسيا ومدنيا وعسكريا وحزبيا ونقابيا، وتشخيص الحالة السياسية للدولة، وتبيان وضعية الحريات العامة والخاصة وحقوق الإنسان.

ومن هنا، فثمة مجموعة من الروايات العربية التي نظرت إلى علاقة الأنا بالغرب من زاوية سياسية، فاعتبرت الغرب مكانا للحرية الحقيقية، وفضاء للحرية والديمقراطية، وفضنا حميميا لحقوق الإنسان، وملجأ سياسيا خيرا للاحتماء من الاستبداد العربي، والوقاية من رعبه وقهره وعنقه وقمعه المتسلط، والهروب قسرا واضطرارا من بلدان الطغيان السياسي والجبروت السلطوى نفيا وتحررا وانعتاقا واستقرارا.

ومن الروايات التي تحمل رؤية سياسية انتقادية تجاه هذه العلاقة الشائكة بين الشرق المتخلف سياسيا والغرب المتقدم مدنيا وحضاريا رواية «شرق المتوسط» للكاتب العربى المعروف عبد الرحمن منيف، والتي تصور رجب إسماعيل وهو منبهر بحضارة الغرب أيما انبهار، ومعجب بمدنيته أيما إعجاب، فيفتتن بسياسته العادلة، وتشبثه بالديمقراطية الحققة وحقوق الإنسان. فى حين يصف دول شرق المتوسط بالتخلف والاستبداد والبطش والقهر وقمع الذوات الداعية إلى ثورة التغيير، ولا سيما الذوات العضوية المثقفة الواعية. ويقول السارد متحدثا إلى أهل باريس: «لو جنتم بكتبكم على شاطئ المتوسط الشرقى، لقضيتم حياتكم كلها فى السجون، سيأكلكم الندم، سوف تكفرون بكل شىء، وتدفعون ثمن الكلمات حياتكم كلها فى السجون الصحراوية، وهناك تصابون بالسل، والتيفود وتموتون».

ونجد هذه الرؤية السياسية الانتقادية واضحة أيضا لدى الروائى المصرى صنع الله إبراهيم فى روايته «نجمة أغسطس»، حيث يرصد جدلية الأنا بالآخر، وذلك عبر المقابلة بين الإنسان المصرى والآخر

الروسي، فالأول يهدده الفقر والداء والقمع، بينما يعيش الثاني في سعادة وغنى ونعيم. كما يذكر الكاتب العلاقات اللامتكافئة بين مصر وروسيا، وينتقد التصور الإيديولوجي الاشتراكي الزائف عبر نسج حبكة غرامية بين البطل وعشيقته تانيا.

أما الكاتب السورى حنامينه فى روايته «رحلة الربيع والخريف»، فينبهر بحضارة المجر، ويشيد بالتجربة الاشتراكية فى هنغاريا، ويدين سياسية الاعتقال والقمع والفقر والتجويع فى بلدان الشرق والاستبداد والقهر. ويقابل بين الشرق المتخلف الضائع والغرب الاشتراكي المتقدم من خلال تجربة عاطفية رومانسية بين الراوى (الخريف) وبيروسكا (الربيع). ولم تنته هذه العلاقة الرومانسية إلا بعودة كرم إلى بلده بعد الحرب العربية الإسرائيلية. وبعد وصوله إلى دمشق، سيزج به المخبرون فى السجن عقابا له على نضاله السياسى اليسارى.

٥- الرؤية العدوانية:

تستند الرؤية العدوانية إلى اعتبار الغير أو الآخر مخالفا أو مقابلا للأنا أو الذات. وبالتالي، فالغير يحاول تغريب الذات وإقصاءها وتهميشها، مع ممارسة العدوان والنبذ والحقد ضدها. فيصبح الغير هنا جحيما لا يطاق. لذا، تنتقل العلاقة بينهما من مرحلة التعايش والسلام إلى مرحلة العدوان والصراع الجدلى. وهذه النظرة العدائية السلبية غالبا ما تفرز حسب هيجل فى حالة انتصار أحد منهما إلى ظهور ما يسمى بجدلوية السيد والعبد.

وعليه، فالعلاقة بين الأنا والآخر لا تكون دائما علاقة إيجابية قائمة على الأخوة والمحبة والصدقة والتعايش، بل قد تكون علاقة سلبية

قائمة على الكراهية والعدوان كما نجد ذلك في رواية فدوى طوقان «الرحلة الأصعب»، والتي تحمل صورة عدائية للآخر مبنية على النبذ والاحتقار والازدراء. ويعنى هذا أن شخصية الرواية المحورية شخصية فلسطينية تعرضت كباقي شعبها للتشريد والتعذيب والتغريب والعدوان والطرده من أرضها المحتلة بسبب مكائد الغير أو الآخر الصهيونى المستغل، لذلك تولدت فى نفسيتها مشاعر الحقد والكراهية والعدوان تجاه الآخر، ألا وهو الصهيونى المحتل الظالم والغاشم. ومن هنا، «فنص فدوى طوقان، «الرحلة الأصعب» هي سيرة ذاتية ذهنية يختلط فيها التاريخ بالأدب، والتوثيق المرجعى بالمعطى الأدبى والنقدى. كما أن هذه السيرة هي سيرة المقاومة والصمود والنضال والتوثيق للكتابة الأدبية بفلسطين المحتلة بعد نكسة حزيران ١٩٦٧م».

ومن ثم، تحمل هذه الرواية الأطبويوغرافية فى طياتها رؤية سلبية قائمة على الصراع الجدلى والعدوان الوجودى والكينونى والحضارى والدينى بين الذات الفلسطينية والآخر الصهيونى. وينطبق هذا الحكم على الكثير من الروايات الفلسطينية، وخاصة روايات غسان كنفانى، ولاسيما روايته الرائعة: «عائد إلى حيفا»..

وتظهر هذه الرؤية العدائية والصدامية أيضا فى رواية «أمواج البحر» للكاتب المغربى مصطفى شعبان، والتي ترصد لنا صورة مغترب كان يحلم منذ صغره فى المدرسة أن يكون طبيبا، وقد سعدت الأسرة أيضا سعادة بهذا الحلم. وكافح الفتى وثابر فى دراسته حتى حصل على قسط من التعليم، ليجد نفسه فى بلده بين أنياب البطالة والفقر ينخره الضياع

والعبث واليأس واللاجدوى. وليس أمامه من حل سوى ركوب الموج وأخطاره للبحث عن لقمة الخبز في باريس العمل والأمل والأحلام. بيد أن رجال منير لم يكن إلا هاربا سريرا يخالف قوانين الهجرة، ويسبب متاعب كثيرة للبلد المضيف. لذلك، أصبحت حياة رجال جحيما لا يطاق، حتى إن حجرته صارت كسجن «للحراقين» الهاربين، وقصص للمتهمين النازحين من قارة البشر والمديونية والتخلف وانعدام فرص العمل وحقوق الإنسان. ومن ثم، تصبح حياة رجال في باريس محسوبة الخطوات، ومدروسة بدقة، يتراقص أمام عينيه طيف المراقب ولعنة السجن وعاقبة الطرد، وما سيعانيه في بلده من مأس وصدعات عضوية ونفسية واجتماعية وأخلاقية: «داخل هذه المملكة الخيالية تعيش حراقا في باريس، تنصب لنفسك مخرجا، ترتب الأدوار التي تصعقك في كل تحرك.. تتدبر تنقلاتك اليومية.. كيف تعشى.. اللبس الذي يقتضيه تحركك.. كيف تعود.. الرزانة المطلوبة في كل خطوة تخطوها حتى تبدو بالمظهر المتزن، وحتى لا تثير الشبهة والأنظار من حولك.

أعيش في باريس كطائر يغدو في الصباح ولا أدرى أعود إلى حجرتي أم لا أعود..؟! حجرتي المسكينة لا يحلولى الاهتمام بها ولا السهر على ما تستحقه من ترتيب».

ويعيش رجال انفصاما سيكولوجيا وانفصالا مزدوجا على المستوى الذاتى بسبب التمزق النفسى بين البر والبحر، وبين الأنا والغير. وهذا ما يجعل هذه الرواية يغلب عليها المسرود الذاتى والمناجاة والمنولوج. ويمكن إدراجها ضمن الروايات النفسية أو المنولوجية القائمة على الصراع

النفسي، والتآكل الذاتي، وتشظى الذاكرة، وتقاطع الذهن والوجدان، وصراع الأنا واللاشعور. ويتغلغل إيقاع الموج في نسج سمفونية رحال وراء شعوره المنساق مع مدة الخوف وقلق الموت وعيب الحياة ولعنة الطرد، حتى إن روايته وسيرته عبارة عن مد من الأمواج التي تعلن موته وضياعه، وتضع حدا لطموحاته، وتجعل حياته نسقا من الروتين والتكرار الملل والفراغ اللامجدى والتتابع المخيف.

ويلهث رحال وراء العمل والآخر والغير والأنثى لتكسير وحدته وغربته، والبحث عن معنى لحياته وكينونته ووجوده في باريس، ولكن بدون جدوى مادام مهاجرا سريا بدون هوية وأوراق تحدد وضعه الوجودى. لذلك، سيبقى رحال فى ملجئ النسيان والفقدان بدون ذاكرة ولا انتماء، حيث تنشب الغربة فى صدره أنيابها الحادة والدائمة. وتصبح اللازمة الروائية «طائر أنا أغدو فى الصباح ولا أعرف أعود إلى حجرتى أم لا أعود...!؟» عقدة الحبكة السردية وبؤرتها الحكائية. وترتكز هذه الحبكة على ثنائية الارتحال والعودة فى علاقتها بالزمان والمكان والإثبات والنفى.

وقد أحس رحال باستغلاله فى العمل من قبل المسئولين عن أورش الحفر، واستلابه وتحويله إلى أداة للحفر والبناء، وذلك دون أن يستفيد مما يستفيد منه عمال الشركات الذين يملكون تراخيص قانونية وعقود العمل المشروعة. وعندما لا يجد رحال العمل فى أورش الحفر يتعرض للخوف والقلق والعزلة وكآبة الوحدة، وتتجمع حوله هموم الذات والمكان. ولم تنفعه معاشرته خلانه من أصنافه الهاربين بواسطة قوارب الموت، ولا زيارة أهله وأقاربه المنشغلين بعملهم وقوت حياتهم، ولا زكية التي

اعتقدتها الخلاص وبر الأمان، إذ وجدها في الأخير «حراقة» مثله تبحث عن العمل وزوج سيضفى عليها مشروعية البقاء وكيونونة الانتماء والاندماج في باريس الأحلام والسراب.

وينعدم في هذا النص الروائي مكون الوصف، ويعوض ذلك بمجموعة من الأحداث وتفصيل يوميات رحال، واستقراء حالاته النفسية عبر إيقاعات متموجة تمد صاحبها بالتوتر والدرامية وشحنة القلق وأزمة الخوف من المستقبل المجهول. لذلك، تتداخل الأزمنة في الرواية لتشكل مفارقات جنائزية وسرايب من السراب والموت البطيء لإنسان دائم في ارتحال واغتراب.

وإذا كان ماضى رحال هو زمن الأحلام والآمال والفتوة، فإن حاضره يتسم بالاغتراب والعذاب والتآكل الذاتي والقلق والخوف من المجهول والمصير الضائع، وكأن مستقبله في استشراف رحيله وطرده وموته باعتباره ذاتا نكرة مجهولة لا قيمة لها في عالم الاغتراب والقيم المادية، مادامت علاقة الأنا والغير قائمة على الصراع وجدلية السيد والعبد.

وإذا كانت باريس طه حسين وتوفيق الحكيم مدينة الجن والملائكة وسحر المعرفة وحضارة العقل والحرية، فإنها بالنسبة لرحال وأمثاله «الحراقين» والمهاجرين السريين ليست سوى جحيم الموت والضياع والاستغلال والاغتراب والقلق والخوف ومصادرة حقوق الذات المجهولة والكائنات النكرة. ومن ثم، تصبح باريس بشوارعها وحجراتها وفضاءات الميترو ومقاهيها وحناناتها وميادينها فضاء عدائيا كابوسيا يشحن رائده بعقدة النقص والخوف والعبث.